العمـــارة الإســـلامية في العـــهد العبـاسي

ABBASID ARCHITECTURE

قامت ثورات عديدة على الأمويين انطلقت من الولايات الشرقية وخصوصا خراسان. قتل مروان الثاني آخر الخلفاء الأمويين في عام 132 هـ/750 م وبذلك انتقلت الخلافة إلى العباسيين، الذين ينتسبون إلى أولاد العباس عم النبي (ص). بويع أبو العباس بالخلافة في مدينة الكوفة، التي غدت العاصمة الأولى للعباسيين. توالى بعده على الخلافة خلفاء عظام مثل أخيه أبي جعفر المنصور والمهدي والهادي وهارون الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق بالله، الذي ينتهي بانتهاء خلافته في عام 232 هـ عهد الازدهار العباسي المعروف بالعهد العباسي الأول. تبعه عهد من الفوضى وضعف سلطة الخلفاء.

وحدة الدولة العباسية لم تكن كاملة منذ البدء، إذ انفصلت عنها ولايات وأقاليم واستقلت ذاتيا. أول الولايات المنفصلة كانت الأندلس التي بقيت أموية. تلاها المغرب، حيث قامت دولة الأدارسة في أيام الرشيد، وفي تونس تأسست دولة الأغالبة. واستقلت مصر حين ولي عليها أحمد بن طولون (254-292 هـ)، تلتها الدولة الإخشيدية إلى أن دخلها الفاطميون (358 هـ/ 969 م). كما قامت الدولة الحمدانية في حلب والموصل بين عامي (317- 394 هـ). وفي الأقاليم الشرقية نشأت دول مستقلة عديدة أيضا.

العمـارة الإسـلامية في العـهد العبـاسي الأول – (الجزء 1)

(132-232 هـ / 750-850 م)

تركزت العمارة في العهد العباسي الأول في العراق. تميز هذا العهد بالازدهار الحضاري في شتى النواحي، فإلى جانب نشاط حركة البحث العلمي والتأليف، التي شملت نواحي متعددة، كان هذا العهد غنيا بأهل الفن والصنائع. فقد شهد نهضة كبيرة في هذا المجال، حيث تنافس الخلفاء على إنشاء المدن وبناء المساجد والقصور، التي لم يصلنا منها إلا القليل، بسبب الدمار الذي لحق بهذه المناطق على أيدي المغول والتتار.

تأثرت العمارة العباسية بمواد البناء المتوفرة في بلاد الرافدين منذ القدم وهي اللبن المجفف في الشمس إضافة إلى القرميد والتي استخدمت أيضا في العمارة الإسلامية، التي تأثرت بعمارة الحضارة السابقة لها مباشرة في إقليم العراق وهي الحضارة الفرس المعروفة بالحضارة الساسانية.

1. مـدينة بغـداد (بغداد المنصور) Baghdad

كان بناء مدينة بغداد أول عمل قام به العباسيون للحصول على عاصمة تليق بالدولة الجديدة. تم اختيار مكان مدينة بغداد (على الضفة الغربية من نهر دجلة) وتخطيطها في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور في عام 762 م، الذي اتخذها عاصمة للخلافة وسماها دار السلام. ولكن بغداد المنصور، التي كانت مبنية بالكامل من اللبن اندثرت ولم يكشف حتى الآن عن أي أثر لها، سيما وأن المنطقة مأهولة إلى اليوم. ولكن الوصف الدقيق الذي نستنتجه من كتب المؤرخين من أمثال الطبري واليعقوبي والخطيب البغدادي كاف لمنحنا فكرة واضحة عن مخطط المدينة وبناء أسوارها وأبوابها وشوارعها وأبعاد كل منها.

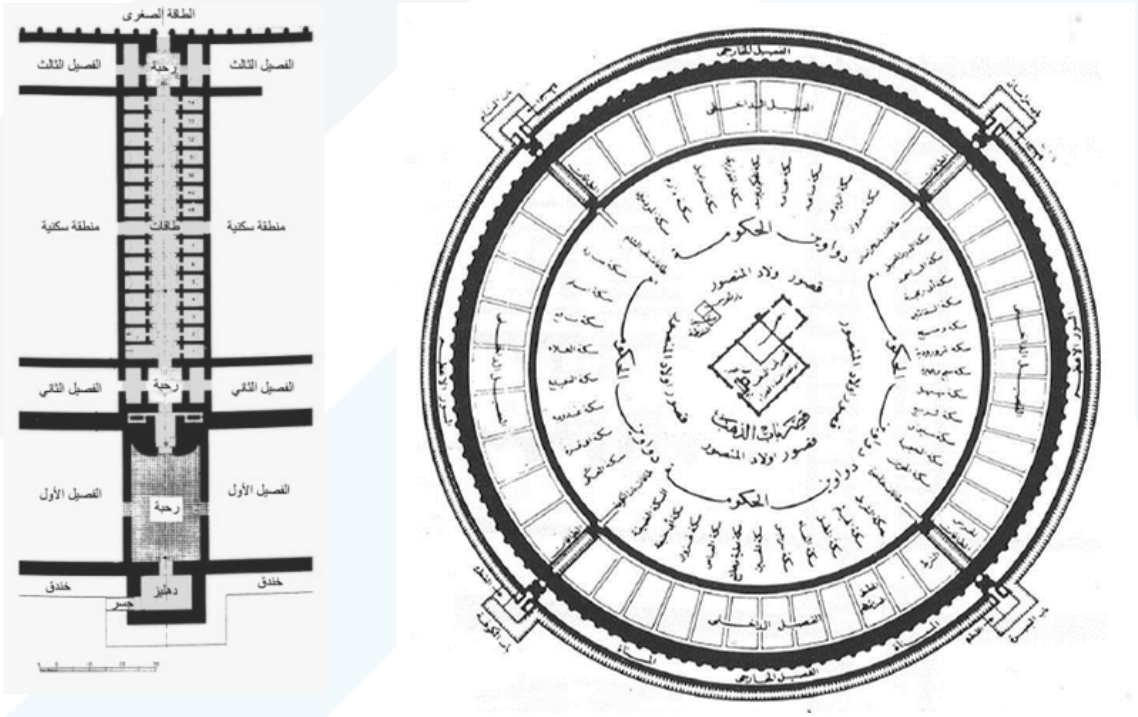

مدينة بغداد: مخطط المدينة الدائرية حسب كريزويل - تفصيل أحد الشوارع الرئيسة المؤدية إلى مركز المدينة

استفاد العالم كريزويل من هذا الوصف في وضع تصور لمخطط المدينة. كانت بغداد مدينة دائرية الشكل، قطرها 2,6كم تقريبا. وكانت محاطة بسور مؤلف من ثلاثة أسوار دائرية لها نفس المركز. فتحت ضمن السور أربع أبواب تميل 45 درجة عن الاتجاهات السماوية الرئيسة. سميت هذه الأبواب بأسماء المدن التي تقابلها: باب البصرة في الجنوب الشرقي، وباب الكوفة في الجنوب الغربي، وباب دمشق في الشمال الغربي، وباب خراسان في الشمال الشرقي. يتم الدخول إلى الأبواب الأربعة عبر ممر منكسر، يتقدمه جسر لعبور الخندق المحيط. كل باب يتصل بشارع رئيس يؤدي بشكل قطري إلى مركز

المدينة. تتقاطع هذه الشوارع مع الأسوار ببوابات دفاعية يلي كل منها رحبة وهي ساحة مكشوفة تستخدم للدفاع في حال اختراق البوابات. وبين السور الثاني والثالث يحف بكل من هذه الشوارع سوق طويل مقبي مؤلف من دكاكين على الجانبين، كان يطلق عليها اسم طاقات. الشوارع الرئيسة تقسم الحيز الواقع بين السورين الثاني والثالث إلى أربع مناطق سكنية مقسمة بواسطة شوارع شعاعية، تسمى سكة، إلى 45 قطاعا.

مركز المدينة، الذي يلي السور الثالث، كان عبارة عن حديقة كبيرة، قطرها 1500 م، يتوسطها قصر الخلافة المعروف بقصر الذهب، والذي كان يتميز بقبة خضراء ارتفاعها يزيد عن 40 م وإلى جانبه يقع المسجد الجامع. ويحيط بالمركز قصور أولاد المنصور ومن ثم الدواوين الحكومية.

اتسعت بغداد بعد المنصور وأضيفت إليها ضاحيتان هما الكرخ والرصافة. وبقيت مركزا حضاريا هاما إلى أن دمرها المغول في عام 1258م. تعتبر بغداد مثالا على تخطيط المدن المنتظم، أي أن هناك فرقا بين المدن القائمة التي أصبحت مدنا إسلامية مثل دمشق وحلب وغيرها والتي بقي فيها تأثيرات التخطيط العمراني السابق من يونانية ورومانية واضحة ومؤثرة وبين المدن التي أسسها المسلمون. بغداد المنصور أشبه بالمدينة المثالية وهي متأثرة بتخطيط المدن الساسانية مثل مدينة فيروز أباد التي كانت عاصمة للساسانيين في القرن الثالث الميلادي.

2. قصـــر الأخيضـــر Qasr al-Ukhaidir

قصر الأخيضر مبنى هام بني في بداية العصر العباسي، يذكر بالقصور الأموية ولكنه يضم الكثير من العناصر التي أثرت على العمارة العباسية التي تلته.

قصر الأخيضر، الذي يقع اليوم ضمن البادية العراقية على بعد 125 كم إلى الجنوب الغربي من بغداد قرب مدينة كربلاء، كان يتوسط زمن إنشائه منطقة زراعية خصبة ترويها مياه الفرات بواسطة نظام من الأقنية. ينسب القصر إلى عيسى بن موسى ابن أخي المنصور ووالية على الكوفة. بناه بعد عزله سنة 161 هـ/778 م. للقصر أهمية كبيرة في تاريخ العمارة الإسلامية فهو يتميز بتصميمه المتقن وجودة بنائه ويضم عناصر مبتكرة في فنون التحصين والعمارة العسكرية. استخدم الحجر الغشيم في بناء الأسوار الخارجية للقصر والآجر في بقية الأجزاء، مما يفسر حالته الجيدة.

القصر يتألف من سور حصين، داخله قصر مسور، تحيط به من ثلاث جهات حدائق بينما يلتصق في الشمال بالسور الخارجي. السور الخارجي مربع تقريبا، أبعاده 175 × 169 م، تتوسط الأضلاع الأربع بوابات مفتوحة ضمن برج كبير، تؤدي الشمالية منها إلى القصر. السور مدعم بأبراج مسقطها في الأركان ثلاثة أرباع الدائرة، أما في الأضلاع فتتألف من دعامة جدارية يلتصق بها برج نصف دائري. يتوسط المسافة بين كل برجين دعامة جدارية تستند إليها أقواس. وهي ليست للزينة، بل لها وظيفة دفاعية، فهناك فراغ بين الأقواس والجدار يستخدم كسقاطة لصب الزيوت المغلية على المهاجمين، تستعمل من الممر الدفاعي الممتد أعلى السور. ويعتبر هذا العنصر الأول من نوعه في العمارة العسكرية. يتم

الوصول إلى الممر الدفاعي، الذي كان مسقوفا ومزودا بمرامي السهام، بواسطة أدراج موزعة في الأركان وعند البوابات. كانت البوابات مزودة بباب انزلاقي أو زلاقة. وهو باب حديدي ينزل شاقوليا بواسطة حبال ولوالب لإغلاق القصر في وجه المهاجمين.

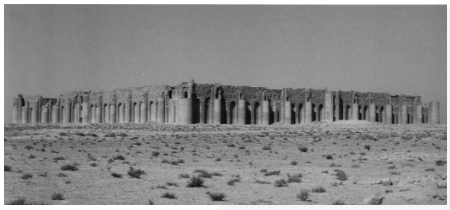

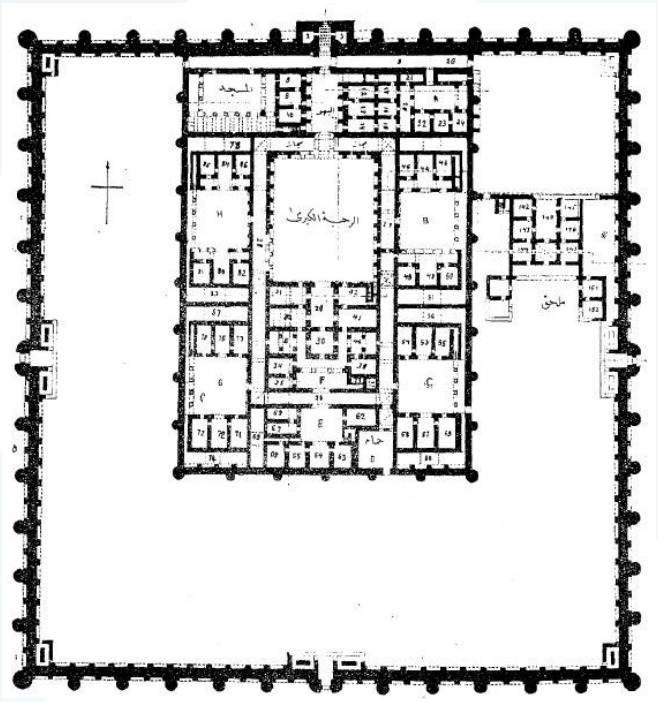

قصر الأخيضر: المسقط - واجهة خارجية - الفناء الداخلي المركزي - بوابة قاعة العرش المطلة على الفناء

القصر يقع مباشرة خلف البوابة الشمالية ولا يفصله عنها سوى ممر مسقوف يؤدي في نهايتيه إلى الحدائق المحيطة بالقصر. شكل القصر مستطيل يمتد من الشمال إلى الجنوب (112 × 80 م)، وهو محاط بسور خاص مدعم بالأبراج نصف الدائرية. يؤدي المدخل إلى بهو فخم مسقوف بقبوة أسطوانية مبنية من الآجر على شكل قوس مدبب (مرسوم من مركزين)، ومنه يتم الانتقال إلى فناء مركزي تتوزع في جدرانه أنصاف أعمدة تحمل أقواسا ينتج عنها ما يشبه المحاريب. جنوب الفناء، على محور المدخل نجد القسم الأهم من القصر المعروف بدار الأمير نظرا لهندسته الفخمة. وهو يطل على الفناء بواجهة فيها ثلاثة أبواب، أوسطها هو الأكبر ويتميز بكون نهايته أعلى من بقية الواجهة تمييزا له، ويعتبر ذلك أول مثال على هذا النوع من البوابات، يعتقد أنها أثرت على كثير من المنشآت، التي جاءت بعدها. وهو يفضي إلى قاعة مستطيلة ذات قبوة أسطوانية، تؤدي بشكل محوري إلى قاعة مركزية مربعة، كانت مسقوفة بقبة. يحيط بالقاعتين مجموعة من

الفراغات. تتوزع حول الجناح المركزي مجموعة من الوحدات المستقلة التي يفصلها عن الجناح المركزي ممر مسقوف. تتألف كل وحدة من فناء داخلي مربع يحيط به في الشمال والجنوب جناحان سكنيان.

أما الزاوية الشمالية الغربية فيحتلها مسجد القصر. وهو يتألف من صحن محاط من الشرق والغرب برواقين. قاعة الصلاة تتوضع جنوب الصحن وتنفتح عليه بخمسة أقواس، وهي مسقوفة بقبوة أسطوانية طويلة موازية لجدار القبلة، مبنية من الآجر تتميز بتشكيلها المتقن الذي يستغل مادة البناء للحصول على أشكال تزيينية. ويوجد بين القصر والسور الخارجي جناح ملحق يعتقد أنه كان مخصصا لأبناء الأمير.

3. مدينة سامراء Samarra

المدينة الثانية، التي تم إنشاؤها أيام العباسيين في إقليم العراق لتكون عاصمة هي سامراء أو سر من رأى. شيدت المدينة عام 210 هـ/836 م في خلافة المعتصم، الذي رغب الابتعاد عن بغداد لأسباب سياسية واجتماعية، فاختار موقعا يبعد حوالي 130 كم إلى الشمال من مدينة بغداد.

أنشئت سامراء، على عكس بغداد، دون مخطط منتظم ودون سور، بل امتدت على مساحة كبيرة من الأرض على الضفة الشرقية لنهر دجلة. كانت المدينة تتألف من مجموعة من الأحياء المحاطة بأسوار. وبلغ طولها حوالي 35 كم في حين وصل عرضها في بعض الأماكن إلى 2 كم. وأنشأ الخليفة المتوكل إلى الشمال منها مدينة أخرى عرفت بالمتوكلية أو الجعفرية.

لم تسكن سامراء إلا فترة قصيرة تقل عن 50 عاما، بين عامي 836-883 م، لأن الخليفة المعتمد عاد إلى بغداد. ويعتقد أنه كان يقيم في سامراء في ذلك الحين قرابة نصف مليون نسمة. أهم المباني التي شيدت في المدينة الجامع الكبير وجامع أبي دُلَف وعدة قصور مثل قصر المعتصم (قصر جوسق الخاقاني) وقصر بلكوارا.

1.3. الجامع الكبير في سامراء Great Mosque of Samarra

بني جامع سامراء الكبير في عهد الخليفة المعتصم في سنة 221 هـ/836 م. وهناك مصادر تشير إلى أن بقايا المسجد الموجودة حاليا تعود إلى عهد المتوكل سنة 237 هـ/852 م وقد بني بعد أن هدم الجامع الأول. يمكن من خلال بقايا المسجد التعرف على مخططه وبعض عناصره المعمارية. أهم المعالم الباقية من الجامع سوره الخارجي ومئذنته، بينما تهدم الحرم كليا، ذلك أن الأسوار والمئذنة بنيت باستخدام الآجر، بينما اعتمد اللبن المجفف في الشمس في بناء الدعائم والأجزاء الأخرى.

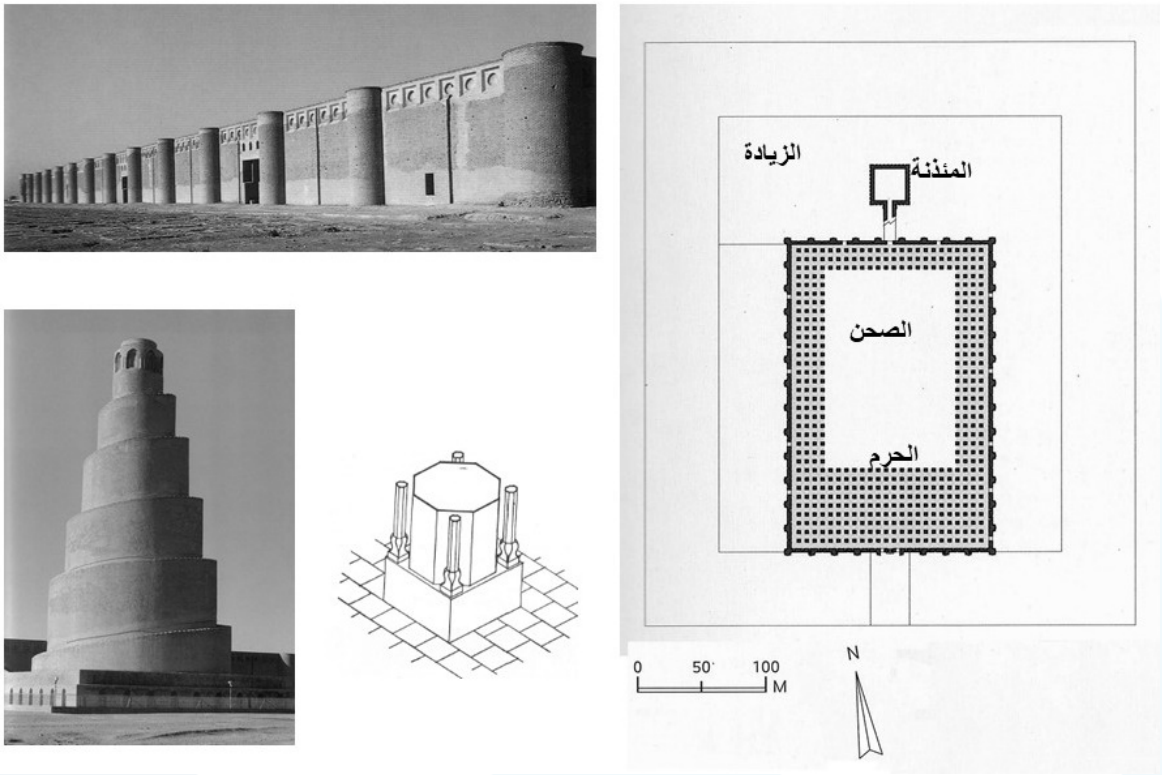

جامع سامراء الكبير: المسقط - واجهة خارجية - دعائم الحرم - المئذنة الملوية

المسجد مستطيل الشكل، يمتد من الشمال إلى الجنوب، أبعاده 240 × 156 م وهو بذلك من أكبر مساجد العالم. يحيط به سوران إضافيان، وتسمى الأراضي المسورة الإضافية بالزيادة ولم يعرف الغرض منها إلى الآن. يعتقد أنها كانت إما مكانا لنزول المسافرين وأبناء السبيل أو لإقامة طلاب العلم أو لعزل الجامع عما حوله. الجدار الخارجي للجامع مشيد من الآجر ومزود بالأبراج نصف الدائرية ويخترق هذا الجدار 21 بابا تؤدي إلى الداخل.

الجامع مكون من صحن واسع مستطيل تحيط به من الشمال والشرق والغرب أروقة مؤلفة من صفوف من الدعامات. يحده من الجنوب حرم الجامع (قاعة الصلاة)، وهو عبارة عن قاعة مستطيلة تمتد من الشرق إلى الغرب مكونة، من تسعة صفوف من الدعائم الموازية لجدار القبلة، يقابلها 24 صفا بالاتجاه العمودي على القبلة. سقف الحرم كان محمولا مباشرة على الدعائم أي دون أقواس (كان الوضع مماثلا في الأروقة). وعلى الرغم من اندثار الأقسام الداخلية من الجامع، فإن الأبحاث تدل أن الدعائم كانت ذات مقطع مثمن ولها قاعدة مربعة كان يقوم على زواياها الأربع سويريات، أي أعمدة رخامية صغيرة تشكل زوايا الدعامة.

أما أكثر أقسام الجامع كمالا وشهرة فهو المئذنة، التي لا زالت محافظة على بنيتها الأصيلة رغم مرور الزمن. المئذنة مفصولة عن الجامع، فهي تقع على محور الجدار الخارجي الشمالي وتبتعد عنه مسافة 27 م. عرفت المئذنة بالملوية نظرا لشكلها الحلزوني. وهي مؤلفة من نواة أسطوانية مصمتة تلتف حولها مرقاة حلزونية تطوف خمس دورات باتجاه

معاكس لعقارب الساعة. تنتهي المئذنة بغرفة، يعتقد أنها كانت مسقوفة بقبة، بينما تزدان جدرانها الخارجية بثمانية محاريب أحدها هو الباب. ارتفاع المئذنة حوالي 50 م يضاف إليها أربعة أمتار هي ارتفاع القاعدة المربعة التي تقوم عليها. وتعتبر هذه المئذنة ذات طراز مبتكر ومميز رغم ما قيل عن اقتباسها من الزيقورات الرافدية التي كانت ذات شكل هرمي متدرج وليس حلزونيا.

2.3. جـامع أبي دُلـف Mosque of Abi Dulaf

أقام الخليفة المتوكل حين شيد مدينته الجديدة، الجعفرية، شمال سامراء، جامع أبي دُلف وكان ذلك في حوالي عام 247هـ/861 م. وهو يشبه في تصميمه جامع سامراء الكبير مع بعض الاختلاف. فهو أيضا مستطيل الشكل ويمتد من الشمال إلى الجنوب، أبعاده 213 × 135 م، أي أنه أصغر من الجامع السابق. جداره الخارجي مزود بالأبراج نصف الدائرية ويتخلله 15 بابا تؤدي إلى الداخل. وتحيط به زيادة أيضا.

وهو في وضعه الراهن معاكس للجامع الكبير، حيث زالت معظم أسواره التي كانت مبنية من اللبن وبقيت عناصره الداخلية، التي تشكل الحرم وأروقة الصحن، ما عدا السقف، لأنها شيدت من الآجر. أي أن أحد الفروق الأساسية بين الجامعين كامن في استخدام مواد البناء بشكل معاكس.

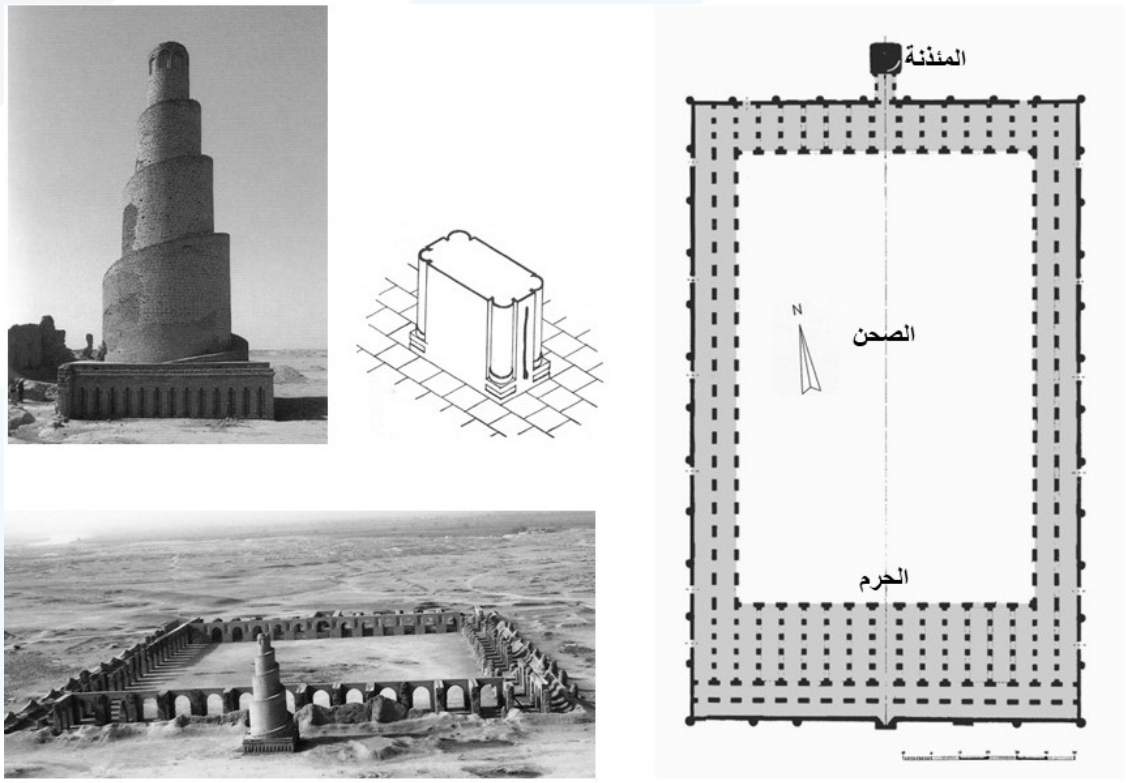

جامع أبي دلف في سامراء: المسقط - دعائم الحرم - المئذنة الحلزونية - صورة جوية للموقع

يتميز صحن الجامع باتساعه بالنسبة للقسم المغطى. وهو محاط من الجهتين الشرقية والغربية برواق مؤلف من مجازين موازيين للجدار الخارجي، بينما يتكون الرواق الشمالي من ثلاثة مجازات دعائمها تحمل أقواسا تتعامد مع الجدار الخارجي.

أما الحرم الممتدجنوب الصحن فهو يختلف عن المساجد الأخرى المعروفة إلى ذلك الحين، لأنه يجمع بين المجازات الموازية لجدار القبلة، كما في الجامع الأموي في دمشق، وبين المجازات العمودية عليه، كما في المسجد الأقصى. فبمحاذاة جدار القبلة يمتد مجازان موازيان له، بينما يتكون القسم الباقي من الحرم من مجازات عمودية على جدار القبلة تمتد بين واجهة الحرم المطلة على الصحن وبين المجازين الموازيين للقبلة.

جامع أبي دلف يختلف عن جامع سامراء الكبير بأن دعائمه تحمل أقواسا كان يستند عليها السقف، ولا زال بعضها قائما، والدعائم نفسها مختلفة أيضا. فهي مشيدة من الآجر ومقطعها الأفقي مستطيل، زواياها الأربعة مشكلة على هيئة سويريات من الآجر.

أما مئذنة جامع أبي دلف فهي شبيهة بالملوية، ولكنها أصغر منها. وهي تقع أيضا خارج الجامع وعلى محور بابه الشمالي. ولها أيضا قاعدة مربعة تقوم فوقها المئذنة الحلزونية التي تلتف ثلاث مرات حتى تصل إلى الأعلى.

3.3. قصـــورســـامراء

مدينة سامراء لم تتألف فقط من المساجد، ولكنها اشتهرت أيضا بالقصور، منها قصر المعتصم المعروف **بقصر جوسق الخاقاني**، الذي لم يبق منه إلا بوابة شهيرة تطل على نهر دجلة. وهي مبنية من الآجر ومؤلفة من ثلاث فتحات الوسطى على شكل إيوان ضخم. والإيوان هو صالة محاطة من ثلاث جهات بالجدران ومفتوحة من الجهة الرابعة بقوس مرتفع على فناء أو فسحة وغالبا ما يكون سقفه عبارة عن قبوة أسطوانية تكرر شكل القوس. ويعتبر إيوان كسرى الموجود في المدائن، بالقرب من بغداد، والذي يعود إلى الفترة الساسانية في القرن السادس الميلادي هو المثال الذي تم الاقتداء به.

إيوان كسرى الساساني (القرن 6 م)

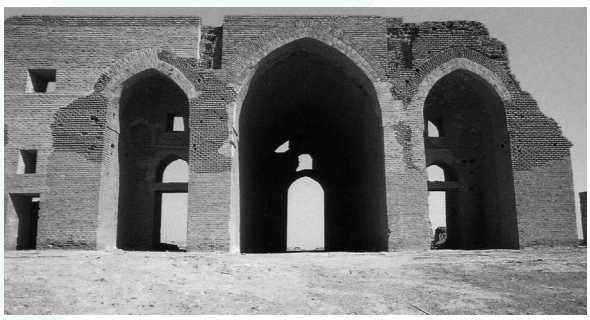

قصر جوسق الخاقاني في سامراء: البوابة

1.3.3. قصـــر بلكـــوارا

من قصور سامراء أيضا قصر المتوكل المعروف بقصر بلكوارا الذي يطلق عليه اليوم اسم "المنقور". شيده المتوكل بين عامي 850-860 م على الضفة الشرقية لنهر دجلة.

مخطط القصر، الذي كشفت عنه التنقيبات، يدل على أن القصر يشغل رقعة مستطيلة محاطة بسور خارجي، مزود بالأبراج نصف الدائرية. وهو ذو مسقط متناظر حول المحور الطولي. يتم المرور من البوابة الخارجية عبر حديقتين مسورتين، بينهما بوابة. كل حديقة كانت مقسمة إلى أربعة أجزاء متناظرة وهي تتبع بذلك تقليدا كان سائدا في بلاد فارس (معروف بـ "تشاهر باغ"). يتم الانتقال عبر بوابة ثالثة إلى القسم الرئيس من القصر، الذي يبدأ بفناء مميز يؤدي بشكل محوري إلى صالة العرش التي يتقدمها بهو واسع. صالة العرش تتكون من صالة مركزية تعلوها قبة وتحيط بها أربعة إيوانات، ويتم الانتقال منها عبر بهو خلفي إلى حديقة أخرى مسورة مطلة على نهر دجلة مباشرة. يحيط بقاعة العرش من الشرق والغرب عدد من الوحدات السكنية التي تتوزع فراغات كل منها حول فناء داخلي. وينفرد المسجد الواقع في الشمال الغربي من القصر باتجاهه المختلف، كونه يتوجه نحو القبلة.

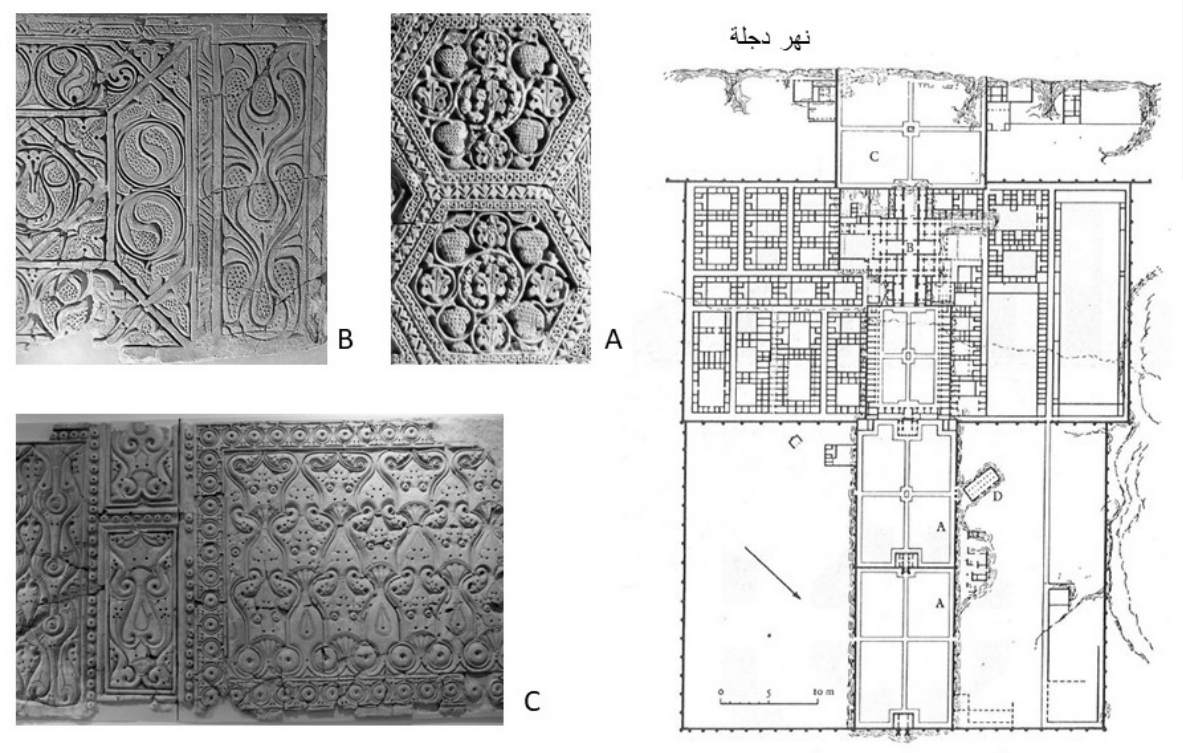

قصر بلكوارا في سامراء: المسقط - نماذج الزخارف الجصية

كان هذا القصر كغيره من مباني سامراء مبنيا باللبن وغنيا بأنواع الزخارف، التي عثر على آثارها ومنها الكسوة الرخامية والرسوم الجدارية (الفريسكو) والأخشاب الملونة. ولكن أشهر أنواع الزخارف التي اشتهرت بها سامراء هي الوزرات ذات النقوش الجصية البديعة (أي النقوش التي كانت تزين الأجزاء السفلية من الجدران). هذه الطريقة في تزيين الجدران كانت معروفة في المنطقة منذ أيام الساسانيين. كان الجص يمد على شكل طبقة ثخينة على الجدار ويشكل ضمنه تكوين معين باستخدام أداة حادة. وكثيرا ما كان يتم إعطاء السطوح مظهرا خشنا عن طريق تثقيبها.

قسمت النقوش الجصية في سامراء إلى ثلاثة نماذج. في النموذج A تم الاعتماد على الأشكال نباتية مثل ثمار وأوراق الكرمة وهي محاطة بإطارات ذات أشكال هندسية. ويتم استخدام نفس التقنية في النموذج B، إلا أن الأشكال النباتية تميل إلى التجريد مع استخدام لعنصر النخيل. أما النموذج C فقد كان يتم قصه بشكل مائل بحيث لم يبق بين الشكل والآخر سوى شريط رفيع وتظهر الأشكال وكأنها مصنعة بقوالب وهي عبارة عن أشكال تمثل النخيل والأزهار والورود. ولا بد من ذكر أن هذه الزخارف الجصية كانت في الأصل ملونة، كما تشير بعض البقايا. كانت هناك محاولات لتأريخ هذه النماذج وإعطائها تسلسلا زمنيا ولكن الأبحاث الأخيرة دلت على أنها كانت متزامنة وتدل على حب التنويع في الزخارف. إن استخدام هذه التقنية يتلاءم مع السرعة التي أنشئت بها المباني والمدن. وقد انتشرت في أنحاء الدولة العباسية.